حصل ' لم نتوقعه ' . كذلك كانت مفاجأتنا عندما لم تهدأ الاوضاع ' خلال بضعة أيام ' كما تنبأنا» (المصدر نفسه).

من ناحية أخرى، يمتزج هذا القلق باحساس بالعجز، جراء ما تكشفت عنه الانتفاضة من تصميم ومثابرة على الاستمرار، ومن تحول المواجهة إلى ما يشبه «حرب استنزاف» لم تكن اسرائيل مستعدة لها (ا. شفايتسر، هآرتس، ١١/١/١٩٨٨). وتعزز الادراك بأن «الأمل المنشود بعودة الهدوء» ـ على حد تعبير الصحفي آفي بنياهو ـ «إن تمّ تحقيقه في الضفة والقطاع، فلن يكون سوى مهلة زمنية يقوم الطرفان فيها بالاستعداد للمرحلة المقبلة»، التي، وفقاً لآراء كل الخبراء والمعلقين، «سوف تكون الاكثر خطورة في هذا الصراع العنيف» (عل همشمار، ٨/١/١٩٨٨). اما العميد افرايم سنيه، رئيس الادارة المدنية السابق، فذهب إلى أبعد من ذلك، حيث قال: «ان احداث كانون الاول (ديسمبر) الماضي، سوف تصبح أملاً منشوداً بالنسبة إلى ما يتوقع حدوثه بعد ذلك» (هآرتس، ٧/١/١٩٨٨).

وينحو هذا المنحى، لجهة استحالة عودة الامور إلى ما كانت عليه قبل الانتفاضة، الصحفي أرييه بيلغي: «حتى لو تمّ وضع حد للموجة الحالية، فإن موجات أخرى سوف تأتي . ولمنع ذلك، لا بد من تجفيف النهر [النهر البشري] وهذه مهمة مستحيلة... فقوته تتعاظم من موجة إلى أخرى، بينما تتقلص قوتنا» (عل همشمار، ١٤/١٢/١٩٨٧).

وعبّر عن هذا الاحساس بالعجز، الصحفي يوئيل ماركوس، من خلال إشارته إلى أن اسرائيل، وعلى امتداد سني حكمها العشرين للمناطق، استخدمت أنواع كثيرة من اساليب العقاب . لكن كثرة الممارسة للعقوبات جعلتها غير مؤثرة، مثلها مثل المضادات الحيوية التي يبطل مفعولها كلما أكثر المريض من تعاطيها. «ففي صباح أحد الايام، استيقظت الدولة لتكتشف أن اساليب العقاب قد نفدت من عندها... فباختصار، لم تعد العقوبات تردع. وليس هذا، فحسب، بل أصبحت، ايضاً، تحقق نتيجة عكسية. وبدلاً من اعادة الهدوء إلى المناطق، فإنها توسّع دائرة العداء ومظاهرها» (هآرتس، ٥/١/١٩٨٧).

من ناحية أخرى، يرى بعض المعلقين أن التدهور الحاصل في الاوضاع في المناطق المحتلة، سوف يقود إلى تعزيز مشاعر الاحباط في صفوف الاسرائيليين، في ضوء ترسيخ الجمود السياسي الذي حوّل الاوضاع في المناطق المحتلة إلى «مصيدة» لاسرائيل؛ «فنحن، وهم أيضاً، واقعون في مصيدة، لا يبدو، في المستقبل المنظور، اي مخرج منها... انه وضع محزن، ولكن هذا هو الواقع» (هآرتس، ٢٢/١٢/١٩٨٧). وهذا بدوره «جعل مأساة الشعب الفلسطيني تتحول [على حد تعبير الصحفي مارك غيفن] إلى مأساة للاسرائيليين . فقد وصلنا إلى وضع أصبح فيه علامة استفهام على وجود الدولة بالذات... لكن الاخطر من كل ذلك هو وضعنا الداخلي، حيث بدأ اليأس يتفشى في صفوفنا» (عل همشمار، ١٥/١/١٩٨٨).

من المسؤول ؟

بعد اتضاح طبيعة الانتفاضة، واتساع نطاقها خلافاً للتقديرات الاولية لجهاز الأمن والمسؤولين الاسرائيليين، التي اتسمت بالبلبلة في الاسبوعين الاولين، لناحية تحديد دوافع الانتفاضة ومدى شموليتها، اذ كانت النغمة السائدة في تعقيبات المسؤولين الاسرائيليين، تصرّ على ان ما يحصل يتم بتحريض خارجي، تمثل له قلة من السكان دأبت على بذل جهودها «لتعكير صفو الحياة الطبيعية في المناطق المحتلة»، بدأ بعض المعلقين الصحفيين، كل حسب اجتهاده وقربه من هذا التيار السياسي أو ذاك، يتناول الدوافع السياسية الكامنة في الانتفاضة، ملقياً بالمسؤولية عنها على هذا الطرف أو ذاك. لكن البعض الآخر، عمّم تلك المسؤولية، حيث اعتبر أن السياسة الاسرائيلية إزاء المناطق المحتلة كانت فاشلة وقصيرة النظر منذ سنوات الاحتلال الاولى، وان اسباب الفشل «تكمن في المحتوى الاوسع للمفهوم السياسي الاسرائيلي إزاء القضية الفلسطينية، الامر الذي لا يرتبط بسياسة الحكومة الحالية بالذات، بل بفرضيات أساسية خاطئة كانت الموجه للسياسة الاسرائيلية